

دورية ثقافية تصدر عن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت

عدد خاص



دراسات في العلوم الإسلامية

مجلّة محكّمة

تصدرها كلية الدراسات الإسلامية

شتاء وربيع ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م



جامعة المقاصد في بيروت

دور الإعلام الثقافي في نقل صورة الإسلام إلى الآخر

د. سميح محمود دغيم

من نافل القول، ونحن في الوضعية الراهنة، تأكيد المكانة التي يحتلها الإعلام ووسائل الاتصال في الكونية الأرضية المعاصرة. ومن نافل القول أيضاً الإشارة إلى أهمية الدور الذي تلعبه هذه الوسائل في مجالات التحديث والتثقيف والتنمية والاقتصاد والسياسة حيث يصار إلى إحداث تغييرات وربما أحياناً انقلابات في المواقف والاتجاهات والسلوك. لن نناقش المسألة المطروحة عند هذا المستوى فقط، بل سننتقل إلى مستوى آخر من البحث هو عولمة الأنشطة الإعلامية والذي شكل أهم تطور حصل في العقدين الأخيرين من القرن الماضي. فالعولمة انتظمت مقولة جوهرية، مقولة تضاف إلى مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية من سياسية وتنموية واقتصادية، وأهمها جميعاً عولمة ثقافية.

هل يعني ذلك أن فعل الثقافة بدأ يخضع لشروط العولمة وآليات انتاجها وميكانيزمات أهدافها؟ نحن لا نطرح هنا فرضية على شكل تساؤل، بل ان ما يقلقنا فعلاً هو أن يخضع فعل التثاقف أو التبادل إلى شروط العولمة الاعلامية والتي لم تكتمل بعد. إن هذا الخضوع لشروط العولمة الإعلامية يجعل من فعل الثقافة انموذجاً للهيمنة ضمن منطق عولمتها.

أن يصبح الإعلام الثقافي معولماً، هو الأخطر في الواقع الراهن؛ لأن ذلك لا بد أن يؤدي إلى سيادة وهيمنة أنموذج ثقافي آحادي مقفل ونهائي.

هذا ما يخالف في الحقيقة طبيعة العلوم العصرية من تكنولوجية وثقافية، وشأن ذلك أن يفضي إلى اعتبار أن ما هو موجود الآن ليس عولمة إعلامية ثقافية بل هو عولمة للرسالة الإعلامية بفعل سقوط الحواجز، وهي ظاهرة تكنولوجية أكثر من كونها ظاهرة سياسية أو ثقافية على الرغم من تأثيراتها السياسية والثقافية[1]. وإذا ما أردنا أن نفرد دوراً للإعلام الثقافي في نقل الصورة الثقافية إلى الآخر، علينا أن نتجنب عملية الإسقاط النموذجي المحايث لشروط عولمة النشاط الاعلامي. ان عولمة النشاط الإعلامي على مختلف مستوياته، وفي مختلف مراحل تطوره مرتبط بالتمدد الاقتصادي أولاً، وهو يؤدي خدمة عالية تصل إلى حد التكامل مع احتياجات الشركات العالمية الكبرى غير الإعلامية. إضافة إلى هذا الدور الاقتصادي لوسائل الإعلام هناك جور أخطر يكمن في توفيره بيئة معلوماتية وأيديولوجية من خلال ما يورده في مجالات الاخبار والأفلام الترفيهية من محتوى محدد وموجه، كل ذلك يؤدي أيضاً إلى تدعيم أسس نظم سياسية واقتصادية للتسويق السلعي والخدماتي ولتطوير نظام اجتماعي قائم على ثقافة تحقيق الربح.

يتبين لنا مما تقدم أنه لا يمكننا الولوج في الحديث عن دور الإعلام الثقافي في نقل صورة الإسلام إلى الآخر، دون الأخذ بعين الاعتبار عولمة النشاط الإعلامي الثقافي وفي تأثيراته المستقبلية. لقد تنبهنا إلى خطورة المسألة بالشكل الذي تطرح به وهو عولمة الثقافة عبر عولمة الإعلام، ما يؤدي إلى إنهاء مرحلة التطور وبالتالي إلى إنهاء التاريخ، وبالتالي إلى وضعنا أمام الأنموذج القطعي والمطلق والذي سيؤدي إلى الصدام.

لعل من تصدى لمعنى العولمة بإطاره القطعي اليقيني هو مجال الدراسات الاجتماعية والتي تتخذ من المجتمع كوحدة تحليل (المكان الاجتماعي عند بيار بورديو) والتي لا تتخطى مفهوم الدولة القومية. إن

(١) يراجع في هذا المجال، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، الحولية الرابعة والعشرون.

دراسات بيار بورديو على المجتمع الفرنسي تنطلق من المكان الإجتماعي الفرنسي، ولذلك يغدو من الصعوبة كثيراً أن ندرس الظواهر الإجتماعية في اليابان «بدون أن ندرس قبلاً المكان الاجتماعي الياباني» المحدد بحدود الدولة الأمة. هل يخضع العالم لصورة واحدة؟ هل العولمة الثقافية قائمة وناجحة!! وذلك من نمط العوامل الفوق القومية من مثل تجمعات (الفرنكوفونية - والبلدان الناطقة بالإسبانية، ودول الكومنولث . . .إلخ)، وغيرها من المؤسسات الدولية التي تنشر أفكاراً عالمية مثل حقوق الإنسان - المحافظة على البيئة، الديمقراطية وحرية الأقليات. . . وغيرها. لذلك نحن نرى أن الدراسات السوسيولوجية والتي تقع في أساس التثاقف كونها تعبر عن خصوصيات كثير من الشعوب، تشكل عقبة معرفية أمام انطلاقة العولمة الثقافية.

إن عولمة الثقافة سببت وتسبب مشاكل كثير ناتجة عن محاولة نمذجة وتأطير ونشر ثقافة متجانسة مرتكزة على وسائل الإعلام وبخاصة جهاز التلفزيون الذي يغزو كل بيت وفي كل لحظة، مما يؤثر على خصوصيات ثقافات الأمم والأوطان. إننا معنيون والحال كذلك بالكيفية التي يواجه فيها الفرد أو الهوية الوطنية الثقافية العالمية المتنامية، هل توجد هذه الثقافة العالمية، هل هي حقيقة أم احتمال؟ هل ثقافتنا جزء منها أم خارج عنها؟

الثقافة ليست مفهوماً عائماً يمكن الصاقه بمجموعة معطيات، بحيث يلزم عن ذلك مفاهيم عامة وعالمية جاهزة للتناول، بل أن الثقافة تلزم عن محددات خاصة لجماعة معينة من حيث المعتقد والعادة والتقاليد والسلوك وإنماط الإنتاج والترفيه وكل النشاطات الإنسانية الممكنة. إن التفاعل بين الثقافات هو الذي يؤدي إلى النمذجة وبالتالي العولمة، وإذا لم يحصل هذا التفاعل، فإن النمذجة والعولمة هما مشروعا هيمنة وصدام. هذا ما نشاهده اليوم من محاولة تعميم للقيم الغربية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، والتي تجلت في مشاريع الغزو العسكري والقيوم الاقتصادية والضغوط السياسية، والغزو الثقافي المتمثل بنشر القيم والسلوك والعادات وانماط الترفيه وكل ذلك من خلال مقولة التدفق الحر للمعلومات.

السؤال المطروح هل يلعب الإعلام الثقافي وبأي صيغة يمكنه ذلك دوراً مهماً في التعريف بالذات والتعرف إلى الآخر؟ ضمن أي فهم تطرح ورقة المؤتمر دور الإعلام الثقافي في التعريف بالإسلام وبالثقافة الإسلامية؟

إن التثاقف بين المختلفين لا يعني أبداً التماثل مع الآخر ولا هو إلغاء له بل هو قبول واتفاق، واختلاف وتنوع، إنه اتفاق على التعددية. العولمة الثقافية تدحض في واقع الأمر أي تصورات حول الثقافة الخاصة، من هنا خطر النمذجة بالمفهوم القطعي اليقيني والمركزي. إن عولمة الحياة الإنسانية بمختلف مستوياتها وواجهها تشكل في الواقع احدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر.

ولعل ما يساعد على ذلك هو تطور العلم وإسهام العلوم الإنسانية في هذا التطور وخصوصاً في ميادين التاريخ ـ الانتروبولوجيا ـ الاجتماع ـ علم النفس. كل ذلك أغنى ذلك الرصيد العقلي للإنسانية جمعاء وساعد على تكوين أنماط جديدة من التفكير. بيد أن هذه المقولة لا يمكنها أن تتجاهل الحقل الاجتماعي الخاص، الثقافة الخاصة. ففي عصر تتعاظم فيه أكثر وأكثر التفاعلات الثقافية ـ الاجتماعية، فإن مسألة وحدة الإنسانية ووحدة النموذج الثقافي العالمي لا يمكن أن تتمثل إلّا من خلال تعددية عقائدية، بحيث تحضر هذه الثقافات المختلفة في التاريخ لتجعل منه تاريخاً عالمياً لا يلغي إطلاقاً الاختلافات والتمايزات من أسسه الداخلية.

المشهد الأول: صورة العربي المسلم في المخيال الغربي

لا شكل في أن من أكثر الأمور إثارة للجدل الملتبس، ما أثارته مسألة تشكل صورة العربي المسلم في المخيال الشعبي الغربي من جهة وعند السلطة الحاكمة عنده من جهة أخرى. ونحن لا نكاد نعثر في الحقيقة على صور إيجابية في العلاقة ما بين الشرق والغرب، ما عدا ما تذكره لنا كتب التاريخ عن رسل هارون الرشيد إلى الملك شارلمان ومراسلات الخليفة المأمون مع بعض الملوك لفك الأسرى مقابل الحصول على كتب معينة، إضافة إلى الفتح

الإسلامي للأندلس السعيد في القرن السابع الميلادي. هل تكفي هذه الحيثيات لإشادة موقف من العلاقة بين المخيلة التاريخية العربية وبين أوروبا؟

حيث دخلت الجيوش المسلمة إلى الأندلس في القرن السابع الميلادي، لم يكن الغرب قد تعرف بعد قط على الحضارة العربية وعلى الدين الإسلامي تحديداً. كان المخيال الشعبي الغربي منصباً انذاك على محاربة الوثنية في أوروبا.

فوجىء الأوروبيون بسرعة وصول المسلمين إليهم، فانصرفوا إلى الكتب الدينية وخصوصاً الكتاب المقدس ليجدوا تفسيراً لهذه الظاهرة، وسرعان ما أوجدوا في مخيالهم صورة نمطية لأمة متوحشة بربرية. هذه الصورة النمطية تكونت بأدوات ومنهجية دينية، ولقد ساهم في تكوينها حكام أوروبا الذين كانوا يستنجدون بالدين دائماً لصون مصالحهم. أما على صعيد المخيال الشعبي، فليس لدينا ما يدل على اختلاف الصورة عملاً بمبدأ أن الناس على دين ملوكهم.

وفي ظل تطور المفاهيم والأحداث وخصوصاً مع تشكل مفهومي الشرق والغرب ومع بداية الحروب الصليبية، بدأت تتشكل صورة جديدة أيضاً في إطار الحرب الدينية (الحروب الصليبية) صورة ثانية وبنفس المنحى لكن بأدوات جديدة هي في الحقيقة أدوات التوسع الاقطاعي المغلف بغطاءات دينية. كانت مرحلة القرون الوسطى مرحلة ظلامية في أوروبا بمقابل نهضة عامرة في العالم العربي الإسلامي، وبالرغم من ذلك كانت الصورة المتشكلة في الوجدان الغربي عن العربي المسلم هي صورة الكافر المتوحش.

بيد أن المسألة تبدلت وبدأت مرحلة جديدة في أوروبا مع بداية عصر النهضة (التنوير) عصر الاكتشافات الجغرافية وعصر توسيع الآفاق من حيث النظرة والتفكير، بحيث غدا العقل الأوروبي أقرب إلى التخلي عن الخلفية التي يقابل بها الآخرين، ليستبدلها آخر تدخل فيه الاعتبارات المصلحية والصراع على المكاسب.

لقد اصطدم الغرب بموجة ثانية من الاجتياح الإسلامي، تمثلت بسيطرة

الأتراك «المسلمون» على شبه جزيرة البلقان ودقهم لأبواب ڤيينا.

لقد ظهر المسلم التركي بصورة الوحش الغازي، بمقابل ما كان يدعيه الأوروبيون من مفاهيم التسامح وقبول الآخر، وكلها أفكار عصر النهضة الأوروبية. لقد تهيأت لأوروبا أدوات جديدة لفهم الآخر مع بداية عصر التنوير وتراجعت الخلفية الدينية في تميط صورة الآخر، وحلت محلها ثورة تمجيد العقل.

وبالرغم من تغير أدوات القراءة للآخر، بقي الآخر المسلم عند الغرب صورة عصية على التقدم، صورة تمثل الظلامية والكسل والجهل الفطري. لقد سرى اعتقاد في الغرب من أن الشرق لا يمكن أن يتقدم ما لم يتم الحاقه بالصيرورة التاريخية للغرب.

بيد أن القرن العشرين حمل معه معطيات جديدة وأحداثاً متعددة أبرزها وأهمها الحربين العالميتين التين أدتّا إلى اقتسام مناطق العالم وتحديداً توزيع التركة العثمانية بحيث أصبح الاحتكاك مع الآخر مباشراً، أضف إلى ذلك اكتشاف النفط محرك الطاقة العالمية. لقد نادى الغرب بقيم الحرية والديمقراطية ومسألة تداول السلطة واعتبرها من القيم الإنسانية التي يجب أن تسود العالم. وبالمقابل فقد سعى إلى إنشاء أنظمة دكتاتورية موالية له في العالم العربي والإسلامي.

إن المشهد في القرن العشرين يشهد تعقيدات كثيرة، فالأحداث فيه متسارعة ومن أهمها دخول الولايات المتحدة الأميركية إلى ساحة الصراع في العالم خصوصاً وإنها هي التي أمنت الانتصار النهائي في الحربين العالميتين، وفرضت بذلك نفسها كأقوى قوة عسكرية واقتصادية في العالم.

نخلص في هذا السياق التاريخي وضمن وتيرته المتصاعدة إلى رسم صورة نمطية للعربي المسلم كشرير وإرهابي يرفض من منطلقاته الدينية قيم الغرب كالحرية الفردية والديمقراطية وحكم القانون والحرية الثقافية. وبذلك غدا الإسلام عدواً للغرب وبدون مقدمات، حيث حاول المستشرقون والانتروبولوجيون قراءته قراءة جوهرانية تجعل منه ديناً عنيفاً لا يتقبل القيم

الإنسانية الداعية إلى التسامح والحرية وقبول الآخر. وهكذا بدأ تعميم فكرة ذعرية عن الإسلام، والأخطر هو التركيز على الإسلام كدين وليس على الحضارة الإسلامية أو على المسلمين. إن التركيز على الإسلام كدين تحديداً ومحاولة قراءته بأدوات غير مناسبة لطبيعته كدين يجعل مسرح النقاش مع الآخر غير متكافئ سلفاً.

المشهد الثاني: مُكوِّن الصورة

من المسؤول عن تكوين هذه الصورة الجوهرانية والتاريخانية عن الإسلام؟

هل هم المستشرقون الغربيون؟ هل ساهم العرب المسلمون في تكوين هذه الصورة عنهم نتيجة إخفاقاتهم المتتالية في الحفاظ على المكتسبات التي حصلوها في اندفاعتهم الجهادية الأولى؟ كيف يمكن أن تقرأ تجربة العصر العباسي حيث كان المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً فيه من التعددية والاختلاف ما أتاح لتفاعل ثقافي مهم أفاد منه الغرب ولم يستفد منه أصحابه. ليس صحيحاً بالمطلق القول أن تاريخنا تاريخ سعيد، وليس صحيحاً بالمطلق القول أيضاً أن تاريخنا هو تاريخ اخفاقات وإننا شعوب وأمم حالمة؟

تاريخياً لقد وقعنا تحت الغزو المغولي، ووقعنا أيضاً تحت الاحتلال العثماني التركي ولعقود طويلة، لماذا لم يشكل كل ذلك ذاكرة سلبية عند العرب والمسلمين؟ لماذا شكل التدخل الغربي صورة سلبية؟

يبدو أن الأوروبيين جهدوا في إدخال العرب في التاريخ الغربي حيث قد يدمر هذا الدخول نظام حياتهم وبسرعة قد تدل على هشاشة الوضع الذي وصلوا إليه. تدخّل الأوروبيون على شكل غزو ثقافي ثم انتقلوا إلى الغزو العسكري. لكن العرب «المسلمين» كانوا في نفس الوضعية من قبل حين احتلوا بلاد الأندلس لكنهم لم يستطيعوا إدخال الغرب في تاريخهم وكأن لا تاريخ لهم. لا يزال الندم إلى اليوم متلبساً شكل لوم النفس على عدم الفاعلية آنذاك، إذ لو استطاع المسلمون آنذاك أن يُدخلوا أوروبا في سياقهم لما قام

الغرب اليوم. هذا الشعور بالندم يرافقه شعور بالنقمة على المستعمر الغازي، شعور بالندم على ماض مجيد لم يستطع الإفادة منه، شعور بالضغينة على أولئك الذي يبرمون عليه حياته وتراثه.

دخل الغرب ثقافياً إلى بلادنا مرجاً لمفاهيم الحداثة والعصرنة ولكنه بالمقابل تصالح في الوقت نفسه مع البنى التقليدية الموجودة في الشرق وحاول أن يؤسس لأنظمة عشائرية وطائفية ولدكتاتوريات وإمبراطوريات تؤمن الاستقرار السياسي والأمني. لم يبقى الأمر مقتصراً على إنشاء أنظمة سياسية تابعة حتى ولو كانت ديكتاتورية بكونها أفضل من الديموقراطيات غير المأمونة، بل تعدى ذلك إلى انفصام في المجتمعات العربية والإسلامية، ما أدى فعلاً إلى تحولها إلى مجتمعات «هجينة» أطلق عليها صموئل هنتغتون «مجتمعات بريتورية» أي مجتمعات دمرت بنيتها التقليدية الموروثة ولم تستطع أن تلتحق بالبنية الغربية الحديثة لأنها قاصرة في وعيها عن ذلك.

لقد أصبح التردي في الأوضاع لعنة حمّلها للغربي المستعمر وذلك لقصوره عن إدراك الأسباب الحقيقية لهذا التردّي. ما أريد أن أخلص اليه في هذا المشهد هو أن الصورة التي شكلها عنا الغرب لم تكن وليدة أدواته فقط، لقد ساهمنا في تشكيلها من خلال مشاعر الندم تجاه الذات ومشاعر الضغينة تجاه الآخر، لتلتحق مشاعر الظلم بعد خسارة فلسطين، حيث وقع العرب ضحية لأكذوبة لا دخل لهم بها.

أمام هذا الوضع المقلق كانت الحاجة النفسية ملحة إلى انتصار يحرر الذات العربية المسلمة من أسرها، من عبودية مزدوجة: عبودية الذنب الأصلي وعبودية القدر المستسلمة له. قفز العسكر رأساً إلى السلطة وغدت الجماهير العربية المكدسة جنوداً مجنّدة مستعدة للجهاد. وإذ بالمسار يتحول إلى مجموعة شعارات، وإذا بالقائد يصدر الأمر اليومي وفيه تصحيح للوضع الداخلي وحماية للأمة من العابثين. علينا الانصياع لأوامر السلطة دون مناقشة وإلّا حفنة من اتباع الغرب. هذا المشهد الذي يسيطر وغدت السياسة مجرد استراتيجيات حرب وشعارات لا أكثر ولا أقل.

لقد غدت السياسة أمراً افتراضياً لا سند له إلّا في الاستهلاك الأيديولوجي اليومي. كل شيء يختفي وراء شعارات مدوية تداوم على الحياة بدلاً من واقع سخيف يفضل الجميع التغاضي عنه. هذا هو المشهد الذي سيحكم لوقت طويل السياسة والثقافة وكل شيء. لقد عُلِّبت هذه الشعوب من داخل، بحيث كان يكفي للنظام السياسي أن يواجه نظام الغرب ليحرك الجماهير ويستحضرها في همروجته الجديدة. الطاحونة الأيديولوجية تستعيد مسارها، الشعارات تستيقظ من أصبح مبالله بندى العار والذل، وكل ذلك يعيد الأمور إلى بداياتها، إلى الجهاد والنضال، وبذلك تغدو العمليات الانتحارية في فلسطين مطلباً أساسياً في مخيال وذاكرة العربي المسلم.

هذه الذات العربية المسلمة المؤسسة على الندم والإحساس بالظلم نتيجة كونها ضحية الهجمة الغربية، تشكل لديها دين سياسي هو العداء للغرب ساهم به الغرب بنفس المقدار الذي ساهمت به الذات العربية.

لقد دعا بعض المثقفين العرب إلى تحديث الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية (طه حسين - سلامه موسى... بيد أن هذه الدعوات اقتلعتها ديكتاتوريات عسكرية بحجة ولائها للغرب، فاستنفرت الجماهير وسيرت المظاهرات الشعبية، ورفعت شعارات العداء للغرب وأسست مفاهيم الحماسة القومية، هكذا غيبت الجماهير فيما يبدو أنها كانت هائجة لكن باعتبار بوصلة خاطئة. غريب أمر هذه الصورة يكفي أن تواجه نظام الغرب لكي تستعيد شعبيتك لكي تستعيد أولئك الذين كنت تقمعهم قبل لحظات؟ أين تكمن المشكلة؟ ما هي الدوافع والمحفزات لهذا الانقلاب المفاجئ عند الناس؟ يبدو أن للغرائز دوراً مهماً في هذه المسألة، فالشعوب التي تخف عندها المساءلة العقلية في بنيتها الفكرية، تمتشق غرائزياً عند استحضارها من خلال طاحونة الشعارات الإيدولوجية والتي تسكت كل تساؤل وتعيدنا إلى مرحلة البلكفة.

لم يتقصر الأمر على هكذا مساءلة، بل لقد دفعت الأمور في عدائنا للغرب إلى نهايات هذيانية ربما كان بعضاً من أسبابها هو سقوط القوى

اليسارية والقومية في تصديها للهجمة الغربية وقصور دورها على الشعارات، ما جعل الإسلام السياسي يكتشف طاقاته في هذا المجال، حيث ورث عنها نفس الدعوى، ايديولوجيا مسطحة أوصلها الأبطال السابقون إلى حتمية نهائية. أنها في مرحلة الجنون الكامل، أنها خارج الزمان وخارج العصر وخارج كل مكان اجتماعي، أنها العمليات الانتحارية التي تحولت إلى وجبة يومية تكاد تحترم أصول الوجبات الثلاث.

المشهد الثالث: المشهد الثقافي

لا نكاد نعرف وبصدق كم هو عدد الحركات الإسلامية التي تمارس هواية القتل والخطف صبحاً وظهراً ومساءً. نعم هذه هي صورتنا العملية اليوم التي تنقل إلى الخارج، وهي لم تأت من فراغ، فقد جهد الدعاة انفسهم لإيجاد المعادل التراثي الفقهي، أي الأساس الثقافي والفكري والعقيدي لتبرير ما يرتكبه باسم الإسلام، نعم هناك استحضار ثقافوي للعقيدة الإسلامية بمقابل الهجمة التحديثية الغربية. لا يهمني في هذه اللحظة الكشف عن مضمون وآليات هذا الاستدعاء الثقافوي، بل ما يهمني فقط هو معرفة الوظائف التي لزمت عن حضوره.

إن الوظيفة الأساسية للثقافوية الإسلامية أدت إلى تعليب الحياة الثقافية والسياسية في استهلاك ايديولوجي مستمر دأب على طرح شعارات بعضٍ منها يبدو وكأنه أصبح خارج التاريخ.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدأت تظهر آثار توظيفات الدراسات الاستشراقية تاريخانية كانت أم إنتروبولوجية، حيث بدت ظواهر القطيعة بين الغرب الثقافي والسياسي من جهة وبين المسلمين العرب من جهة ثانية.

لقد برزت مقاربتان ثقافيتان للإسلام في الغرب، وكلاهما استشراقيتان: الأولى استشراقية تاريخانية والتي جهد الدارسون العرب والمسلمون في نقدها منذ أيام عبد الله العروي وغيره، والثانية إنتروبولوجية تعرض جوهراً أصولياً للإسلام بطرح التميّز والانفصال عن الآخر:

إن أحداث الحادي عشر من أيلول هي التي أعادت دفع هذه المقاربات إلى الواجهة وهي التي طبعت ما حدث بطابع ثقافي مفاده أن مفتاح فهم الآخر هو الثقافة وليست البنية السياسية، فالصراع هو صراع ثقافي، والى ذلك انتهت أطروحة فوكوياما عن نهاية التاريخ وأطروحة هنتنغتون عن صدام الحضارات، بالرغم من أن أهدافها استراتيجية سياسية. لقد انتصر الحلف الأطلسي في الحرب الباردة وعدّ انتصاره انتصاراً حضارياً إضافة إلى المكاسب الأخرى. كان على العرب أن يردوا وأن يخوضوا المعركة الفاصلة في الثقافة والدين لعجزهم في المجالات الأخرى. كيف يجب أن يكون الرد وحال الثقافة العربية الإسلامية على ما هي عليه؟ أي صورة علينا أن نبرزها؟ هل رد الحادي عشر من أيلول هو الرد المطلوب؟ ولماذا انتهى الأمر إلى ما انتهى اليه؟

ورقة الإعداد للمؤتمر حملت هماً معرفياً ثقافياً، هو دور الإعلام الثقافي في التعريف بالإسلام وهذا يعني ضمناً أن الورقة تقر أن شقاً من الصراع الدائر بين الإسلام السياسي والغرب، هو شق ثقافي، لكن هذا الشق لا يغطي كل مساحة الخلاف. أضف إلى ذلك ما قدمناه من قبل من أن معظم التيارات الأصولية الإسلامية تخوض «الحوار ـ الحرب» بخصوصيات ثقافية عقائدية تعتمد القطع والإطلاق. هل المشهد الثقافي هو الأساس في ثنايا لعبة الصراع؟ أعتقد أنه يجب أن نكون حذرين من الانزلاق إلى حقل غير متكافئ في هذه المسألة. الغرب يضع ثقافته العلمانية الوضعية بمقابل الإسلام كدين.

الصراع المرسوم اليوم من قبل هنتنغتون وغيره يرتكز إلى «صدام الثقافات». هل الثقافات بما هي رؤى ذهنية وفكرة تتصارع؟ هذا السؤال طُرح كثيراً ووُضع موضع نقاش. صحيح إن الرؤى الذهنية والفكرية ستنعكس في سلوك الأفراد عملاً وحدثاً، إلا أن رد كل شيء إلى الثقافة أمر فيه نظر.

يسعى هنتنغتون وفوكوياما وفؤاد عجمي وغيرهم كثيرون إلى تأصيل الأصولية الثقافية الصدامية، وبذلك التقوا على الضفة الثانية من النهر الهادر بأسامة بن لادن، حامل لواء الأصولية الإسلامية. من التقى من؟ إن تنظيرات الحركات الإسلامية الإحيائية ركزت على المسألة الثقافية وخصوصاً عند سيد

قطب وأبو الأعلى المودودي وغيرهم كثيرون، مما أتاح بناء حقل تصادم وصراع مع الآخر، إن الاستغراق في المسألة الثقافية أولاً ومن ثم كيفية نقلها عبر الإعلام إلى الآخر ثانياً. أمر يتطلب الكثير من التحوط ويثير الكثير من الاشكاليات منها:

أولاً: هل هناك اتفاق تام على معنى موحد لمفهوم الثقافة الإسلامية؟

هل علينا أن نحسم أولاً الصراع الموجود في الداخل الإسلامي قبل أن نُطل على الآخر؟ الغرب حسم أمره واصطف الجميع وراء ما سمّي بالحداثة. إن القيم الغربية بما هي انماط وسلوك استغرقت كل الايديولوجيات الغربية بالرغم من اختلافها.

ثانياً: في ظل اختلاف الأدوات الحوارية، هل ننزلق إلى حد أن نسمح وتحت شعار الحوار الثقافي ومعرفة الآخر، بنشر مقالات في صحف ومجلات تنتقد الإسلام من خلال نصوص تراثية محددة؟ يملك الغرب منظومة معرفية ملائمة للعصر وملائمة لتوجهاتها العلمانية، كيف يمكن مقابلتها بآليات وطرق تفكير ضاربة جذورها في أعماق البنية المعرفية التراثية؟

ينشر في الغرب عدد وافر من المثقفين المسلمين العرب وهم يحاولون عرض الإسلام في الغرب وبنفس الأدوات المنهجية الغربية. نخص بالذكر مثقفاً إسلامياً طالت تجربته في فرنسا أستاذاً محاضراً وباحثاً في الإسلاميات، إنه محمد أركون والذي بالرغم من كل المحاولات التي قام بها للتعريف بالإسلام ومن خلال أدوات منهجية ملائمة لبنية الثقافة الغربية، إلا أنه فشل في مسيرته هذه في إقناع أحد زملائه في الأكاديمية الفرنسية وهو أونالديز، بالتأويلات التي أعطاها للآية القرآنية التي تتناول «أهل الذمّة» بقيت النظرة الغربية للإسلام نظرة جوهرانية، رغم الجهود التي قام بها أركون لإضفاء حركية التاريخ على النص القرآني (المصحف).

والمثقف الثاني الذي نخصه هو إدوارد سعيد، الذي عاش في الولايات المتحدة الأميركية، وهو صاحب الكتاب الشهير «الاستشراق» والذي أحدث دوياً هائلاً في أوساط المثقفين الغربيين، فانبروا للرد على التهمة الوظيفانية

التي ساقها إدوارد سعيد ضد الاستشراق الغربي. لقد انبرى هؤلاء لإظهار طروحات تأصيلية بنيوية أو تفكيكية للنص القرآني (أطروحة غلنر - أطروحة كرون وكوك).

ما الذي نتج عن كل الجهد الذي بذله المثقفون المسلمون في الغرب! يكاد يكون المردود من كل ذلك ضئيلاً، اللهم إلا إذا استثنينا ظهور مجال جديد نسبياً هو مجال مراكز الدراسات الإسلامية المسيحية، تلك التي تُعنى بالحوار المباشر بين المسلمين والمسيحيين.

هل يعني كل ذلك أن لا فائدة من الحوار الثقافي؟ وأن أمر الصراع انتهى إلى ما انتهى اليه نتيجة فشل الحوار الثقافي أو فشل المسلمين الذين لم يحسنوا التعريف جيداً بالإسلام وديناميته؟

أعتقد أن مقولة «كل حوار يجب أن يؤدي إلى الاتفاق والتوحد» هي مقولة خاطئة، خطأ من يدمُج بين السؤال والجواب فينتفي عند ذلك العلم، فإنه لو صار العالمَ مظهراً واحداً لما بقي هناك عالم.

يسعى الغرب إلى تحديث العالم كله واستتباعه وإلباسه لبوس القيم الغربية. هل يعقل هذا الأمر؟ هذا هو خطر الانزلاق إلى ثقافوية عالمية؟ هل على الإسلام في عرضه لنفسه أن يمارس نفس الممارسة؟ في الحقيقة إن الأصوليين يمارسون أيضاً في مجتمعاتنا وبالنظرة إلى الآخر ممارسة إطلاقية قطعية، تلتقي مع الممارسة الغربية في الأهداف وتختلف معها في المنطلقات.

نحن لا ننكر إطلاقاً أن الثقافة الغربية هي ثقافة العالم المعاصر، وأن الحوار معها أو الصراع يضعنا في مأزق مع العالم كله، هذا المأزق لا يلزم بالضرورة عن صراع، بل قد يلزم أيضاً عن النمو، وبالتالي لا يمكن لنا ولو من زاوية ما أن نخرج من التاريخ والعصر هذا أمر واقع ومن ينكره يكون كمن يرمي في عماية.

نحن نعتقد أنه يجب أن نفتش عن مستويات أخرى للحوار، من مثل الحوار السياسي أو الاقتصادي، حول المصالح، وأن التركيز فقط على المسألة الثقافية وعلى المشاكل الثقافية يعني أن الأمور ليست قابلة للحل وأن

الثقافة الأقوى هي التي ستهيمن. هذا ما يدعو اليه هنتنغتون وفوكوياما وغيرهما من منظري العولمة الثقافية والتي ستؤدي حتماً إلى صدام الثقافات والى هيمنة الثقافة الغربية، وسيكون الإسلام هو الخاسر الوحيد.

لا أعتقد أن المواعظ التي تُنشر في وسائل الإعلام لهذا الداعية أو ذاك ولهذا الشيخ أو لغيره، بمقدورها تقديم الوجه الحضاري للإسلام ومقارعة الثقافة الغربية، نحن في زمن مغاير لزمن أسلافنا، ومن حقنا أن نبتدع آليات وطرائق جديدة للدفاع عن الإسلام.

ما يسود المشهد الثقافي الإعلامي اليوم هو المشهد التراثي المغلق على ذاته «أحاديث تلفزيونية، شرح لآيات قرآنية». المشهد الذي يتم إنتاج المعرفة فيه ضمن أطر تعود إلى أحد عشر قرناً، أطر تمتهن مهنة تمجيد التاريخ والاحتفاء المبالغ به بالتراث وبمضمونه.

قد أسرفنا حتى الآن في توصيف الواقع من خلال المشاهد التي عرضنا، فما الذي يجب فعله خصوصاً على الصعيد الإعلامي؟

المشهد الرابع: الإعلام الثقافي

نتيجة لتطور الاتصالات والتكنولوجيا والانتشار الواسع للإعلام المرئي والمسموع والمقروء، ونتيجة لتعاظم التبادل الإنتاجي والثقافي، تحوّل العالم إلى شبه قرية كونية صغيرة. ونتيجة للصراعات السياسية تزداد أهمية وسطوة الثقافة والإعلام في تأجيج هذه التجاذبات بين مختلف القوى العظمى والدول.

واليوم يواجه العرب والمسلمون غزواً إعلامياً ثقافياً يحاول تعميم النموذج الغربي على سائر الثقافات، مما يهدد بإلغاء هوية وثقافة الآخر بحجة عدم أهلية وأحقية هذه الثقافة بالوجود. فما هو دور الإعلام الثقافي في الدفاع عن الإسلام وثقافته؟

يسعى إعلام الهيمنة إلى الخلط بين الهيمنة الأحادية وبين العولمة العلمية والتقنية، ويسعى أيضاً إعلام الهيمنة إلى تشويه صورة العربي المسلم، وذلك

من خلال بعض البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية، ومن خلال وسائل نشر أخرى.

وبمواجهة هذه المسألة نعتقد أن المشكلة أعقد من أن يحلها القيام بحملة إعلامية مضادة. لا بد من جعل هذه المشكلة وهي مشكلة التفوق الثقافي وهيمنة النموذج الغربي والصورة المتولدة عن ذلك، موضوع بحث ونقاش، يجب أن تنتقل إلى حقل وعي أوسع مما نحن عليه الآن، يجب أن ننطلق نحو وعي عالمي مطابق بالثقافات العالمية. يجب أن نمتلك قدرة على النقد الابستمولوجي للثقافة العالمية قدرة على تفكيك وعي الغربي بالآخر العربي المسلم.

طرح محمد عابد الجابري في خلال ندوة أقيمت في بيروت منذ سنوات وهي بعنوان: «ندوة الثقافة العربية ومرآة الغرب ـ حوار الثقافات»، طرح مبدأ توازن المصالح، وهو الجانب الذي يمكن أن يعطي لحوار الثقافات مضموناً إيجابياً إنه الجانب الثقافي، وأكمل بالقول: «إن حضور ثقافة ولغة الغرب هو حضور قوي عندنا، فلماذا لا يكون الأمر معكوساً وذلك بأن تنتشر الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي اللغة العربية في المدارس الغربية وتدرس كما تدرس سائر الثقافات وسائر اللغات؟ بيد أن اللغة العربية تبدو عاجزة عن أن تكون لغة عالمية. إن اللغة العربية تعرف اليوم في العالم الغربي من خلال بعض المتخصصين الذي يسمّون مستشرقين، لذلك لا بدّ من تغطية هذا النقص بترجمة الفكر العربي إلى اللغات العالمية، كل ذلك لدحض مقولة التمايز الثقافي وغلبة ثقافة على ثقافة، وإطلاق أحكام قيمة تؤدي إلى صراعات وصدامات».

إن وعي مسألة اختلاف الثقافات لا يقود منطقياً إلى الصدام الثقافي وعلى ذلك أمثلة تاريخية متعددة (تعدد الثقافات في المجتمع الإسلامي المفتوح أيام العباسيين). الثقافات تتلاقى وقد تأتلف وقد تتنافر، لكن القواسم المشتركة ذات الأبعاد الإنسانية الجامعة هي صمام الأمان من انفراط العقد وحصول الصدام. إن الثقافة عندما تتحول إلى وعي ايديولوجي تصبح مشكلة، لقد حوّل الغرب وعيه الثقافي إلى وعي ايديولوجي، فكما هي عنده وعيه

الذاتي وحقيقة الوعي، وبذلك انغلق على نفسه وأصبحت المفاهيم التي ينتجها وعيه هي حقيقة الوعي، وهي مفاهيم مغلقة بالرغم من جاذبية مصطلحاتها كالتقدم والعقلانية والحداثة. هل يعني ذلك أنه علينا وبهذا المعيار أن نرفض هذه المفاهيم بدلالاتها المضمونية؟ بالطبع لا، لكن ما يجب أن يرفض هو الوظيفة الايديولوجية لهذه المفاهيم والاحتفاظ فقط بوظيفتها السوسيولوجية التاريخية. إن الحرية كوعي ايديولوجي هي ما تمارس عليه اليوم إن من جهة الحداثة الغربية التي تحاول فرضها على شعوبنا، أو من جهة شعوبنا والتي باسمها تحاول أن ترد بتمرّد على ايديولوجي آخر. إن الحرية بما هي تميّز سياسي وإجتماعي لا يمكن حصرها في طبائع ثابتة تمتاز بها شعوب عن شعوب أخرى، وثقافات عن ثقافات أخرى، بل إن الحرية يعود أمر امتلاكها إلى سيرورة مجتمعات معيّنة والى تاريخ الوجود الاجتماعي لهذه المجتمعات.

هذا ما يجب أن يركز عليه الإعلام الثقافي العربي الإسلامي من خلال المنتديات الفكرية التي تقام في مراكز الدراسات الإسلامية المسيحية والمنتشرة بكثرة في الآونة الأخيرة. إن الثقافة بما هي تعيّن محدد لوجود اجتماعي معيّن هي تراكم معرفي لا ينفك يتجاوز نفسه على نحو دائم. وعندما تصبح الثقافة تعيّناً نهائياً فإنها تتجه نحو الشمولية الأخلاقية والتي تنتهي إلى تصور طوباوي للتاريخ الإنساني، مخالف بجوهره لمرتكزات ما يقول به العقل الغربي.

هل يسقط المسلمون بنفس المعيارية المعتمدة من الغرب؟ هل ينجرون إلى مقولة صراع الثقافات باعتبارها مقولة فكرية ذهنية، فينبرون إلى ردّ أيديولوجي مغلق؟ إن الحوار والتفاعل الثقافيين محكوم بمدى الحاجة والملاءمة بين الثقافات، وهو ليس محكوماً بمبدأ ضرورة التلاقي. إن حركة التاريخ هي التي تحكم بذلك، والتعاقب بين الأجيال والشعوب والأمم يسير وفق فلسفة للتاريخ تحرر عملية التلقيح من أوهام الوعي العاجز.

بهذا الاعتبار يبدو الإعلام الثقافي الإسلامي عاجزاً عن مخاطبة الرأي العام لدى الآخر (الغرب) إنه إعلام إخباري يمكن في ثناياه منطق التبرير لا منطق البناء، منطق الترداد لا منطق الخلق والإبداع.

ما يعاني منه الإعلام الثقافي الإسلامي هو غياب استراتيجية موحدة، بل لنقلْ، غياب فهم واحد لمفهوم الثقافة. بعض القول في الثقافة هو قول في السياسة والقول في السياسية فيه من المحظورات ما يؤدي إلى إسكات الإعلام والإعلاميين. ما لفت نظري في وسائل الإعلام الفضائية العربية، هو أن آلية الإفهام هي «الصوت العالي» لترنيمة من رصف المصطلحات الجوفاء، والتي غالباً ما هي مأخوذة من مصطلحات ومفاهيم الأعداء. إنني أتكلم عن أغلب البرامج السياسية في الإعلام العربي الإسلامي. أجهزة الإعلام أيضاً هي بدون بعد ثقافي يشد اهتمام المشاهد اليها ويسمح لها بترويج ما تريد ترويجه، فدورها لا يقتصر فقط على ترداد الأمجاد التاريخية والغوص في الذهنية التراثية، بل عليها أن تنتقي من هذه الأمجاد التاريخية ما يتلاءم والذهنية المعاصرة.

قد يكون من الأفضل في تمثل الأفكار اعتماد برامج الترفيه، فالمشاهد هنا ليس محكوماً بالاستماع إلى محاضرة قد يكون مجبراً على الإصغاء اليها، إن الترفيه يخلق وضعاً مقبولاً للتمثيل، إنه تثمين للحياة وفي الوقت نفسه يشكل حقل تخاطب ضمني عماده الأول وعبر الكثير من الوسائل، شد انتباه الجماهير من سامع ومتفرج وقارئ.

بصراحة نحن بحاجة إلى خطاب أكثر عقلانية، خطاب مناهض للعنصرية، خطاب ذي أبعاد إنسانية بالمعنى الوصفي للكلمة وليس بالمعنى الأخلاقي. كل الأديان السماوية والوضعية تحمل أبعاداً أخلاقية، لكن التاريخ يكاد ينتهي مع طروحات هذه الأديان، وحدة فقط الخضوع لصوت العقل هو الذي يجعل الآفاق مفتوحة أمامنا.

على الإعلام الثقافي الإسلامي التركيز على القانون الدولي وحق الشعوب في تقرير مصيرها وشرعة حقوق الإنسان والقرارات الدولية. مفهوم الحرية ليس موجوداً كمصطلح لا في القرآن ولا في الأحاديث النبوية الشريفة، ما هو متداول فقط هو لفظ الاختيار، ولفظ «الحر» بمقابل «العبد» فالحرية لم ترق إلى مستوى بناء جيد كمفهوم إسلامي. بالرغم من كل ذلك فإن التاريخ

العربي والإسلامي يحفل بالكثير من المعطيات المشرقة والسبّاقة، منها ما يعرف عند العرب قبل الإسلام «بحلف الفضول» ولاذي يكاد يكون أول إعلان عن جمعية لحقوق الإنسان، وعن تأسيس أول اجتماع سياسي إسلامي متعدد ومتنوع فيه من اليهود والنصارى قامت «صحيفة المدينة» التي أكدت على حقوق غير المسلمين وعلى حقوق المواطنية.

ليس مظلماً التاريخ الثقافي للإسلام، لكن المظلم هي الآلية التي نستعملها اليوم في إسقاطاتنا الارتدادية نحو الماضي، والذي نكاد نستغرق فيه عندما نعود إليه. لماذا كل ذلك؟ سؤال محيّر أنا لا أملك إجابة عنه، بل كل ما أملكه هو القول: إن الغرب لم يقطع مع تراثه بل قطع مع موروثاته، بمعنى أن الغرب تخطى التراث ليس بعملية نفي وانفصام معه، بل بعملية وعي عميق، أدى هذا الوعي إلى وضع التراث في موقعه وظرفه وبالتالي إلى تخطيه. نحن ما زلنا مستغرقين في عدم فهم للتراث، لذلك نحن نعود إليه دائماً ونندمج معه في ظل ظروف غير ملائمة.

هل وبهذه المعايير، من مصلحة المسلمين خوض حرب إعلامية ثقافية بمقابل الآخر؟ أعتقد أن حقل التخاطب في هذا المجال غير متكافئ لا من حيث الآليات ولا من حيث الدلالات. المطلوب ترك التلاقي الثقافي يأخذ مجراه الطبيعي بتؤده، علينا أن نسعى إلى حقلِ تخاطبٍ آخر مع الغرب، قد بعضاً من أسسه في المصالح الاقتصادية والقضايا السياسية.

